التاريخ في كتابات محمد البشير الإبراهيمي

The history in the writings of Mohammed Al-Bashir Al-Ibrahimi

د.فارس كعوان

جامعة محمد لمين دباغين – سطيف2 (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/02/18 **تاريخ القبول**: 2020/03/05

ملخص:

لا تزال شخصية الشيخ البشير الإبراهيمي رغم ما كتب عنها بحاجة إلى تسليط أضواء على جوانب مغيبة وغير معروفة عنها، فالشيخ كان عالما ضليعا وموسوعيا ليس فقط في علوم اللغة العربية وبلاغتها، بل أيضا في علوم أخرى أثبت فيها موهبة فائقة.

ولن نبالغ إن قلنا أن الإبراهيمي كان يمتلك موهبة فذة في عدد من العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومن هذه العلوم علم التاريخ الذي حظي عند الشيخ بمكانة خاصة بالنظر لخصوصية المرحلة التي عاش فيها، وإن المعركة مع المحتل لإثبات الوجود تحتاج تقديم أدلة تاريخية تكذب ادعاءاته أمام الأمم، وهو ما سعى إليه الإبراهيمي بما توفر لديه من إمكانيات، وما أتيح له أن يطلع عليه من مصادر ودراسات.

الكلمات المفتاحية: المنهج، الكتابة التاريخية، الإبراهيمي، الإصلاح، الوعي التاريخي، النقد.

Abstract:

Despite what has been written on Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi, his personality needs to be in the light of researchers to clarify its aspects which are still unknown. Al Ibrahimi was a well-versed and encyclopedic scholar not only in the sciences and rhetoric of the Arabic language, but also in other sciences which have proven to make him a superior talent.

We will not exaggerate if we say that Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi had a unique talent in a number of human and social sciences, and among these sciences: the science of history that occupied a special place in his life; given the specificity of the period in which he lived. The battle against the occupier to prove existence needs to provide historical evidence which lies in the claims that Al Ibrahimi sought with what was available to him.

***keywords*:** The method, historical writing, Al-Ibrahimi, reform historical awareness , criticism.

- **مكانة التاريخ عند رجال الإصلاح في الجزائر:**

يحتلّ التاريخ مكانة متميزة بين العلوم الاجتماعية، وهو أحد العلوم التي ظل الجدل يدور حول ماهيته ومنهجيته لكثير من الوقت[1]، والتاريخ هو دلالة على مطلق مجرى الحوادث الفعلي الذي يصنعه الأفراد والشعوب، والتي وقعت منذ أقدم العصور، و استمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر، وفي اللغة العربية التاريخ أو التأريخ يعنى الإعلام بالوقت، وقد يدل تاريخ الشيء على غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة، وهو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان[2].

وقد وجدنا أن هذا المفهوم العام للتاريخ قد التبس عند الكتاب الجزائريين في العهد الاستعماري بفعل السياسة الاستعمارية، التي عملت على تغييب الذاكرة الجماعية للجزائريين وتاريخهم[3].

وقد عرّف الشيخ مبارك الميلي التاريخ بأنه: "مرآة الغابر ومرقاة الحاضر، فهو دليل وجود الأمم وديوان عزها، ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها" ووضّح أن دراسة التاريخ تحفظ الأمة من الاستلاب الذي تحاول أمة أخرى فرضه عليها، واعتبر أن دراسة الماضي تتيح للمرء تطوير الحاضر بالاستفادة من أخطاء الماضي وتفاديها في المستقبل[4].

واعتبر المدني أن أبناء العربية في الجزائر يجهلون عن الوطن الجزائري كل شيء بما في ذلك تاريخه:"فكأنهم بذلك يعيشون في ديار غير ديارهم، وأرض لم تنبت آبائهم وأجدادهم

أو كأنهم خلقوا على أرض مبتورة الأصل مجهولة النسب، فاقدة كلّ مقومات الحياة، فهم لا يبحثون عن حوادث أمسها، ولا يهتمون بحالة يومها، ولا يتساءلون عن مستقبل غدها"[5]

وأورد الشيخ عبد الرحمن الجيلالي طائفة من أقوال العلماء في تعريف التاريخ وأهميته وقال عن التاريخ بأنه: "علم تعرف به أحوال الماضين من الأمم الخالية، من حيث معيشتهم وسيرتهم ولغتهم وعاداتهم، ونظمهم وسياستهم واعتقاداتهم وآدابهم، حتى يتم بذلك معرفة أسباب الرقي والانحطاط في كلّ أمة وجيل"[6].

وهكذا فإنّ التاريخ قد حظي بمكانة هامة عند هؤلاء المصلحين الجزائريين، ولا شك أن البشير الإبراهيمي حين خاض فيه قد استفاد من كتاباتهم وتحليلاتهم، حيث لم يتضح مفهوم التاريخ الوطني إلا مع هؤلاء الكتاب الرواد، الذين تعد كتاباتهم التاريخية ذروة تطور الوعي التاريخي الجزائري في تلك المرحلة.

عمل هؤلاء الكتاب إلى جانب إصلاح العقيدة والمجتمع على كتابة التاريخ الوطني وعلى رأس هؤلاء الشيخ مبارك الميلي، فقد روى أنه لم يكن قد درس التاريخ صغيرا ولا كبيرا، ولكنه كان مهتما بتراجم الماضين وتاريخ صدر الإسلام والتاريخ الحديث، فقرأ واستوعب، ورأى كيف زيّف الفرنسيون تاريخ بلاده، وأثّروا بذلك على عقول فئة من الجزائريين كان يعرفها ويختلط بها، وكانت هذه الفئة تنكر أن للجزائر تاريخا جديرا بالدراسة والإطلاع، فعزم على كتابة تاريخ لوطنه يسدّ به الفراغ في انتظار ظهور مؤرخين أكفاء[7].

وكان منهج البحث التاريخي الحديث من الاعتماد على المراجع، ونقد الدراسات السابقة وذكر محتوى الكتاب، وغير ذلك من تقنيات البحث، قد ظهر عند بعض الكتاب الجزائريين خصوصا منهم المحتكين بالأوروبيين[8].

- **العوامل المؤثرة في منهج الإبراهيمي في الكتابة التاريخية:**

ساعدت عوامل عدة في تكوين الثقافة التاريخية لدى الشيخ الإبراهيمي، منها انتماؤه العائلي لأسرة توارثت العلم منذ أكثر من خمسة قرون، وتكوينه العلمي المتميز على يد عمه محمد المكي، وكان جده أيضا من المهتمين بتقييد الأنساب فقد كانت الأسر العلمية

تحتفظ بأنسابها في سجلات خاصة، وفي هذا المجال ذكر الشيخ البشير الإبراهيمي أنه رأى عند جده سجلا كان يسجل فيه المواليد الجدد في العائلة كما ضم هذا السجل تسجيلا لسنوات ميلاد كل أفراد العائلة بمن فيهم الشيخ البشير الإبراهيمي[9].

وساهمت رحلاته ولقاؤه بعدد من العلماء في مصر والمدينة المنورة ودمشق بتعميق المعرفة التاريخية لديه، حيث أن كتب التاريخ لم تكن متوفرة بالحد الكافي في الجزائر، وكان دخولها ممنوعا من السلطات الاستعمارية، على عكس المشرق العربي الذي كانت تلك الكتب تطبع وتوزع بحرية[10].

وكانت ممارسة الشيخ الإبراهيمي التعليم من العوامل التي جعلته يعكف على الاطلاع على أمهات المصادر وينهل منها لتحضير الدروس فتكونت لديه ملكة البحث والتنقيب والتحليل والنقد[11].

وهناك عامل حفز الإبراهيمي على الخوض في الكتابة التاريخية وهو الأوضاع المزرية التي كانت تعيشها الجزائر مما جعل الإبراهيمي يخصص قلمه للدفاع عن مختلف القضايا الوطنية متسلحا بالعلم والمعرفة لإبراز مختلف أوجه الاستغلال الاستعماري[12].

- **مميزات الكتابة التاريخية عند الشيخ البشير الإبراهيمي:**

تتميز كتابة الإبراهيمي في الحقل التاريخي بنفس مميزاته في حقل الأدب، حيث أخضع قلمه المتين وبيانه لتبيان الحقائق التاريخية التي يعرضها للمهتمين من المشارقة، ويمكن تلخيص ميزات الكتابة التاريخية عنده في النقاط التالية:

- وضوح العبارات وسلاسة الأسلوب دون حشو أو إطناب.
- التقسيم المنهجي لعناصر الموضوع إلى عناوين فرعية وفقرات جزئية.
- سعة الاطلاع وهو ما يظهر في الزخم الكبير من المعلومات التاريخية الموظفة[13].

- **مصادر الابراهيمي في الكتابة التاريخية:**

تعتمد الكتابة التاريخية بشكل أساسي على مصادر يستقي منها الباحث معلوماته وعلى وثائق تاريخية تثري بحثه[14] فالبحث يقوم على الوثائق والأرشيفات ولا يمكن أن يرتقي دونهما"[15]وتقتضي وظيفة المؤرخ الارتباط المعنوي بالزمن الذي يكتب عنه لسبر أغواره.

وتبقى مهمة المؤرخ الأساسية الحفاظ على الوثيقة بتدوينها لتبقى شاهدة على العصر الذي كتبت فيه وتظل علاقة المؤرخ بمصادره جزءا من التساؤلات المعرفية المتواترة للمعرفة التاريخية[16].

وهكذا فإنّ التعريف النظري يجعل مهمة المؤرخ الأساسية هي المحافظة على الوثيقة ومحاولة استثمارها في أبحاثه التاريخية، وهي المهمة التي ظلت منوطة به على الرغم من التقدم الذي طرأ على وسائل البحث العلمي.

وإذا عدنا لما كتبه الإبراهيمي فإننا نلاحظ أنه لا يذكر المصادر التي يستقي منها معلوماته التاريخية في الغالب، حيث أنه ذكر الكتب التي قرأها في بداية حياته وهي كتب الأدب ودواوين الشعر وكتب الفقه والسيرة ومتون اللغة ، بينما لم يذكر أنّه قرأ كتبا تاريخية كالمسعودي والطبري وابن كثير.

ولا يعني هذا أنّه لم يعتمد على مصادر تاريخية، فالمطلع على أعماله يجد أن ثقافته التاريخية واسعة مقارنة مع معاصريه الذين كان بعضهم لا يفقه شيئا في تاريخ الجزائر، فهو مثلا يذكر عددا من القوانين الفرنسية ويشرحها كقانون الأهالي والقوانين الردعية ....

تميز الإبراهيمي فيما كتبه من محاضرات تاريخية بالدقة في ذكر عدد من الأخبار والحوادث التاريخية بتواريخها خصوصا فترة الحكم الإسلامي لبلاد المغرب والتي يكون قد اطلع عليها من مصادرها التاريخية المباشرة المخطوطة منها أو المطبوعة[17].

جعلت الثقافة الموسوعية التي تمتع بها الإبراهيمي كتاباته تتميز بالغزارة في المعلومات والتنوع في طرح المواضيع، وهذه الثقافة كانت مصادرها ثلاث:

أولا: الكتب والمتون التي حفظها في قريته على عمه في الصغر.

ثانيا: المكتبات التي زارها سواء مكتبة المدينة المنورة أو مكتبات دمشق والقاهرة مما مكنه من الاطلاع على نفائس الكتب.

ثالثا: احتكاكه بعدد من علماء عصره بالبلاد التي زارها زوده بعلوم لم يكن قد تحصل عليها في الجزائر.

وكما سبق أن قلنا أن الإبراهيمي لا يذكر في الغالب المصادر التي استقى منها معلوماته، ونرجح رجوعه أيضا لكتاب الواقدي فيما يتعلق بفترة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وإن كان لم يذكره صراحة.

ونعتقد أنّه رجع لما كتبه المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في كتابه العبر فقد ذكره حين تطرق لتاريخ الدولة الزيانية،كما ذكر أخاه يحي بن خلدون وكتابه "بغية أو نجعة الرواد في ملوك بني عبد الواد" الذي يبدو انه اطلع عليه مباشرة حيث قال عنه "وهو مطبوع في الجزائر ومترجم إلى الفرنسية"[18]، وذلك الكتاب من أهم الكتب التي ألفت في تاريخ دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية[19].

وفي فترة التواجد التركي يبدو أنّ الإبراهيمي قد اعتمد على ما كتبه الأستاذ أحمد توفيق المدني دون أن يذكره أيضا[20]، فالمعروف أنّ هذه الفترة ظلت غامضة لم تعالج بالتفصيل وحتى الشيخ مبارك الميلي توقف عندها ولم يتطرق إليها في كتابه.

ووجدنا عند الإبراهيمي عبارة غريبة توحي بأنّه اطلع على بعض الكتابات الفرنسية مترجمة طبعا لأنه لم يكن يتقنها كما صرح هو نفسه، حيث كتب يقول عن فترة الاحتلال الفرنسي: " فصلت أخباره في كتب التاريخ الفرنسية وفي تلك الكتب شيء من الإنصاف والاعتراف بعنف الدفاع والاستماتة فيه"[21].

وتبقى أهم المصادر التي اعتمد عليها الإبراهيمي هي الشهادات الشفهية والاطلاع الشخصي، وقد وجدنا أن غالبية كتب المرحلة قد لجأ أصحابها إلى التأريخ انطلاقا من الذاكرة والروايات الشفهية المتواترة كمحاولة لتعويض النقص في المصادر، ولا يعد ذلك عيبا في هذه الكتابات بل إنّ التاريخ ظلّ دائما وإلى حين قريب مرتبطا بالرواية الشفهية.[22]

استفاد الإبراهيمي من الروايات الشفهية عند حديثه مثلا عن بعض الأحداث وأعطى اعتماده على الروايات الشفهية المعاصرة لبعض الحوادث التاريخية لكتاباته ميزة علمية خاصة هي جمع روايات تاريخية تعد اليوم من الروايات النادرة، كروايته عن عمه بعض الأخبار، وذكره أن جده كان لديه سجل يسجل فيه المواليد الجدد في العائلة كما ضمّ هذا السجل تسجيلا لسنوات ميلاد كل أفراد العائلة بمن فيهم الشيخ البشير الإبراهيمي.[23]

وما ذكره عن ثورة الباشاغا المقراني نقلا عن أفراد من أسرته: "وقد شهدها جدي ووالدي وعمره سبع عشرة سنة حاملين السلاح واستشهد فيها جماعة من قبيلتنا وكان المقراني يعتمد على قبيلتنا لسكان الجوار والعصبية وعلى جدي لمكانه في العلم والكلمة النافذة، وكان والدي– رحمه الله– يقص عليّ أخبار الوقائع التي شهدها هو وأبوه".[24]

وذكر الإبراهيمي بعض الحوادث التي عايشها بنفسه فمثلا في حدود سنة 1921 حضر محاضرة للشيخ امحمد بن رحال وهو من أهم رجال السياسة آنذاك وله مواقف من بعض المسائل خصوصا التعليم الأهلي[25] الذي كان يخطب في المجلس المالي الجزائري بالفرنسية، ولم يفقه كلمة منها لعدم إتقانه اللغة الفرنسية، فرأى السامعين خاشعين منصتين، من نوّاب مسلمين وأوربيين وصحافيين ونظارة، وأخبره أحد الحاضرين من أبناء ذلك اللسان وممن يحسن العربي: أن هذا الرجل يسحر ببيانه ويؤثّر به في خصومه.[26]

- **منهجية عرض الحوادث التاريخية عند الإبراهيمي:**

ألقى البشير الإبراهيمي مجموعة من المحاضرات التاريخية في القاهرة في شهر ماي 1955 وهي محاضرات استعرض فيها تاريخ الجزائر وأظهر فيها ثقافته التاريخية، ألقيت هذه المحاضرات ارتجالا في أربعة أسابيع، على تلامذة قسم التاريخ بمعهد الدراسات العربية العليا.

و أما عن دواعي هذه المحاضرات فعائد إلى رغبة الإبراهيمي في"إحياء البيان العربي وإعادة مجد العرب ومفاخرهم، وتجديد تاريخهم وروحانيتهم وأخلاقهم، والتكفير عما اقترفته أجيالنا السابقة من مآثم فرّقت الكلمة وشتّتت الجمع وباعدت بين القلوب حتى مكّنت فينا للغرب ولغاته وماديّاته، فأخذنا بقشورها من غير أن نشاركهم في لبابها، وأنست الماضي

المشرق فانفصل عنه الحاضر فأظلم واختلّ، فلم نستطع أن نبني عليه مستقبلًا باسمًا عن حياة تخزّها خضرة ذلك الماضي ونضرته، فتثمر السعادة والسيادة والعزّة والكرامة، وتعود إليها تلك الخصائص الأصيلة في الدم العربي كلّما صفا ورقّ"[27].

وقال الإبراهيمي أن إدارة المعهد المذكور هي التي حددت له موضوع المحاضرات الأربع، وهو الاستعمار الفرنسي في الجزائر فيما بعد الحرب العالمية الأولى وآثار الحركات الوطنية فيها في هذه الحقبة من الزمن، والموضوع طويل عريض عميق، لا توفيه حقّه أربع محاضرات محدودة الدقائق، ولا عشر محاضرات[28].

ويقول الإبراهيمي مخاطبا تلاميذه من المشارقة: "فمن حق الجزائر عليكم أن تعرفوها وتصلوا رحمها وأن تدرسوا تاريخها الذي هو جزء من تاريخكم، وأن تعدّوا محنتها محنتكم وقضيتها جزءًا من قضيتكم ..."[29].

وأمّا عن منهجه في عرض محاضراته تلك فقد قال: ".. كتبت بعد إتمام المحاضرات ما يحاذي معانيها، وما بقي في الذاكرة من بعض ألفاظها، ولم أقف عند حدود تلك المعاني فتوسّعت فيها وزدت عليها ما هو أصل لها أو متفرّع عنها، لأن الكتابة تبقى وتعمّ فائدتها بخلاف الكلام فإنّه أعراض سائلة زائلة، وألممت فيما كتبت بشيء من تاريخ الجزائر من يوم أسلمت، ومن يوم تعرّبت، ثم بشيء من أخبار الدول التي قامت بها من أهلها، ثم مررت بتاريخ العهد التركي وهو أطول العهود فيها، مرورًا أهدأ مما سمعه الطلّاب منّي وأبطأ.

ووضح في البداية أنّ اسم الجزائر مشتق من قبيلة بني مزغنى البربرية التي كانت تقيم بساحل الجزائر، فكانت كلمة الجزائر التي تطلق اليوم على عاصمة القطر، ثم على القطر كله تستعمل في أوائل ما أطلقت– مضافة، فيُقال "جزائر بني مزغنان" [30].

وبنو مزغنان قبيلة بربرية تعمر ساحل البحر، حيث المدينة الآن، وكانت في هذا الموضع من شواطئ البحر الأبيض صخور بارزة في الماء يصطنعها الصيّادون لصيد السمك ولسكناهم في السنة أو في معظمها، فيطلق عليها الناس لفظ "جزائر" لتعدّدها وتقاربها وإحاطة الماء بها، ثم هجر المضاف إليه تخفيفًا في الاستعمال، وشاعت كلمة الجزائر المجرّدة

علمًا على المدينة التي غطّت الساحل الجميل، واتّسع عمرانها حتى غطّى الجبل الذي تستند إليه. وهي تقع بموضع مدينة قديمة اسمها" إكوسيوم"، ولم تتخذ الجزائر عاصمة لهذا القطر الواسع إلا في العهد التركي. ثم وضع عنوانا هو :" فتح العرب لإفريقيا الشمالية" تحدث فيه عن الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والمراحل التي مر بها ذاكرا مجموعة من التواريخ ولكن دون أن يذكر مصادره في ذلك.(31)

وانتقل لما سماه "حقبة المد والجزر للجزائر بين تونس ومراكش" وضّح فيه ظهور تصارع الأمويين والعلويين وما آل إليه ذلك من نشوء الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى.

وقال أنّ الجزائر "المغرب الأوسط" كانت في أغلب عهودها الإسلامية موزعة بين مراكش وتونس فكان القسم الشرقي منها يتبع في الغالب لتونس ويتبع القسم الغربي للمغرب الأقصى، ومضى في تعداد الدول الإسلامية التي ظهرت بإقليم المغرب الأوسط بادئا بالدولة الرستمية التي نشأت عام 144 هـ/ 761 م وانقرضت عام 296 هـ/ 908م(32).

ثم ذكر الدولة الصنهاجية الزيرية التي ظهرت بجبل التيطري عام 324هـ/935م وانقرضت عام 547 هـ/ 1152م ، والدولة الفاطمية رغم أنها أسبق من الزيرية، وتحدث عن نجاح دعوتها بين قبائل كتامة ونشأتها عام 297هـ / 909م وانقطاع دعوتها من القيروان عام 341 هـ/952م باستقلال الدولة البادیسية الصنهاجية عنها(33).

وتحدث عن الدولة الزيانية بتلمسان التي نشأت عام 633هـ/1235م، وانقرضت عام 957هـ/ 1546م باستيلاء الأتراك عليها، وذكر ما عانته هده الدولة من جانب الممالك المجاورة لها وهي الحفصية في الشرق والمرينية في الغرب(34).

وانتقل للحديث بعد ذلك عن الدولة التركية، والظروف التي نشأت فيها بفعل تدهور أحوال المغرب الأوسط واستغلال الأتراك لتلك الفرصة لتوطيد أركان دولتهم وخصص لهذه الدولة عددا من الصفحات تحدث فيها عن خير الدين بربروس وبعض خلفائه، وجهادهم ضد الإسبان ومراحل الحكم التركي بالجزائر، ووصف حالة البلاد العلمية على عهدهم بالصفحة السوداء في تاريخ الجزائر العلمي لتدهورها(35).

وتطرق للحديث عن الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومقاومة الأمير عبد القادر ونهايتها واستمرار المقاومة الشعبية بعد ذلك، وتحدث عن ثورة المقراني عام 1871 التي قال عنها: "وقد شهدها جدي ووالدي وعمره سبع عشرة سنة حاملين السلاح واستشهد فيها جماعة من قبيلتنا وكان المقراني يعتمد على قبيلتنا لسكان الجوار والعصبية .."[36].

وقسم الإبراهيمي حالة الجزائريين مع الاستعمار الفرنسي بحسب تأثيرهم فيه وتأثرهم به إلى ثلاث مراحل رئيسية هي:

المرحلة الأولى: 1830–1871 وهي مرحلة الثورات المتصلة الحلقات في أغلب نواحي القطر كما قال.

المرحلة الثانية: 1871– 1914 وهي مرحلة تدهور الحالة النفسية لشعب الجزائري وتحكم المستوطنين في مصيره.

المرحلة الثالثة: 1914– 1954 وهي مرحلة تأثير الحرب العالمية الأولى على الجزائريين وظهور الحركة الوطنية وتأسيس جمعية العلماء،[37]وخصص من المرحلة الأخيرة حيزا هاما أشار فيه لظروف نشأة الجمعية ومبادئها وصولا إلى اندلاع الثورة التحريرية ضدّ النظام الاستعماري الفرنسي[38].

وجاء عرض الإبراهيمي للحوادث التاريخية عرضا سلسا بلغة راقية، وبمعاني واضحة وكان يتدخل ليبدي رأيه الخاص في عدد من الحوادث، فقد كان يركز على القول إن الدول الإسلامية التي ظهرت على أرض الجزائر هي دول جزائرية صميمة، وهو في هذا يفند ادعاءات بعض الكتاب الأجانب من كون بعض الدول التي قامت لم يكن للسكان المحليين أي دور فيها[39].

ويقول الإبراهيمي عن قلعة بني حماد: "وفي بعضها منازل قبيلتي ومسقط رأسي، ولم تزل آثار قلعة حماد ماثلة إلى يومنا هذا، ولا يوجد لموقعها نظير في المناعة الطبيعية، وإن آثارها لتنطق بالقوة والاتساع مع وعورة المسالك المؤدّية إليها.

ومدينة "ايكجان" التي أسّسها أبو عبدالله الشيعي وسمّاها دار الهجرة وجعلها مبعث دعوته، ما زالت معروفة بهذا الاسم إلى الآن وهي قريبة من بلدنا بنحو مائة ميل، فنشأة الدولة الفاطمية كانت في الجزائر، وإن انتقلت بعد ذلك إلى القيروان والمهدية، وقد بسطت سلطانها لأول نشأتها على القسم الشرقي من القطر الجزائري، أعني ما يشمل مقاطعة قسنطينة[40].

ويقول عن الدولة الزيانية: "وهذه الدولة أيضًا نشأت في صميم الجزائر من صميم أهل الجزائر، ومن أوسط قبائل زناتة نسبًا، وهم بنو عبد الواد، وكانت قاعدة مملكتهم مدينة تلمسان وكان للمؤرّخ ابن خلدون ملابسات بهذه المدينة "أي تلمسان" وبملوكها الزيانيين، ولأخيه يحي بن خلدون إقامة فيها وكتابة عن ملوكها، وقد كتب يحي هذا تاريخًا لدولتهم، اسمه "بغية أو نجعة الرواد في ملوك بني عبد الواد" وهو مطبوع في الجزائر ومترجم إلى الفرنسية[41].

وقال الإبراهيمي عن دولة الأتراك بالجزائر إن تاريخها ارتبط بالجهاد ضدّ النصارى فقد "كانت نكبة الإسلام في الأندلس، وتخاذل المسلمين عن نجدة إخوانهم فيها، مقتضية لنتيجتها الطبيعية، وهي ضراوة الإسبان وتكالبهم على المسلمين أينما كانوا، وأقرب بلاد المسلمين إليهم شمال إفريقيا، والقضية من أساسها صليبية سافرة، وأول الانتصار يغري تأخره[42].

وقال الإبراهيمي عن العهد التركي أنّه أطول عهود الحكومات المتعاقبة على الجزائر في تاريخها الإسلامي، ولم تتسع رقعة الجزائر على دولة من الدول التي نشأت مثل ما اتسعت في العهد التركي، فمدة العهد التركي العثماني في الجزائر ثلاثمائة سنة وتسع عشرة سنة وينقسم إلى خمسة أدوار، بحسب نوع الولاة الذين تعاقبوا على حكم الجزائر[43].

ويصل الإبراهيمي لفترة الاحتلال الفرنسي وبعد أن تحدث عن سقوط مدينة الجزائر وما ارتكبه المحتل تحدث عن قضية جوهرية لا زال الباحثون يواجهونها إلى اليوم وهي غياب مصادر باللغة العربية عن تلك الحقبة[44].

وكتب في هذا الخصوص: "ومن المحزن أن أخبار ذلك الاحتلال الظالم، وأخبار تلك الحرب وما ارتكبه الجيش الفرنسي فيها من موبقات وأخبار الدفاع الشريف الذي قام به الشعب الجزائري، وما أظهر فيه من بطولة وما ظهر فيه من أبطال، كلّ ذلك لم يسطر فيه حرف بالعربية من أبناء الجزائر، إلا أن تكون مذكرات خصوصية، ماتت بموت أصحابها أو تناستها الأجيال اللاحقة لأسباب بعضها يرجع إلى تمكن الاستعمار وحرصه على طمس الحقائق التي لا تجري مع هواه، وعمله على نسيان الشعب الجزائري لأمجاده وعلى تصوّره للحقائق مقلوبة أو مشوّهة، حتى تضعف فيه ملكة التأسي ثم تموت[45].

وكتب الإبراهيمي عن ثورة المقراني ونتائجها: "وشاء الله أن تسقط فرنسا أمام الجيوش الجرمانية، وتهزم شرّ هزيمة، وتفرض عليها تلك الضريبة الثقيلة فتعطيها وهي صاغرة، ثم تجمع فلول جيشها وتجهّزها لتحطيم ثورة المقراني، فتمّ لها ذلك[46].

وتحدث الإبراهيمي عن السياسة الاستيطانية الفرنسية، حيث كانت السلطات الاستعمارية تعمد لمنح المستوطنين الأوروبيين أخصب الأراضي بعد انتزاعها من الأهالي الجزائريين.

كما تحدث عن قانون الاهالي أو الأنديجينا وهو قانون مجحف ظالم يبيح لأصغر حاكم فرنسي أن يسجن الأهلي خمسة أيام ويغرمه خمسة عشر فرنكًا، وله أن يضاعفها عشرات المرّات من غير سؤال ولا جواب ولا استئذان ممن هو أعلى منه، ولا تمكين من دفاع ولو بكلمة، وقد تكون الكلمة الواحدة من فم السجين موجبة لسجنه خمسة أيام، أو عشرة أيام أو ما شاء حضرة الحاكم، وكانت كلمة واحدة من معمّر أوروبي يلقيها إلى الحاكم بأن فلانًا الأهلي امتنع من أن يبيع لي أرضه كافية في بقائه في السجن أشهرًا مع مضاعفة التغريم حتى يبيع أرضه بالقيمة التي يرضاها المعمّر[47].

وانتقل الإبراهيمي للحديث عن بوادر العمل السياسي في الجزائر مع حركة الأمير خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر الكبير، "وهو رجل شجاع جريء ...فلما أحيل على المعاش في أواخر الحرب الأولى كان من أول من رفع صوته مطالبًا في جرأة وإلحاح بحقوق الجزائريين، وكان الظرف كما وصفنا مناسبًا، وأعانه على ذلك سمعته النَّسَبية وسمعته العسكرية، واقتحم المعارك الانتخابية للنيابة لأول ظهورها في الجزائر ففاز في جميعها"[48].

- **الوعي التاريخي عند الإبراهيمي:**

يُعرّف الوعي التاريخي بأنّه التبصر الدائم والهادف بالتاريخ القريب والبعيد الذاتي والموضوعي الحاصل- أي التبصر- من خلال التوغل المركز في قراءة صفحات التجارب البشرية الكثيرة والمتنوعة وفحصها وتدبر أبعادها وخلفياتها واكتشاف المؤثرات والسنن التي ساهمت في بعثها وإيجادها قصد التزود والاعتبار ومحاولة تفهم الأسس النفسية للكثير من الأحداث والصراعات والانفعالات والتأثيرات والحروب، الحاصلة والمتولدة عبر الأيام في تاريخ البشرية الحافل والطويل[49].

والوعي التاريخي قد ارتبط بمرحلة تاريخية حاسمة في تاريخ البشرية وهي القرن التاسع عشر ففي هذا القرن ظهرت الدولة المعاصرة بمقوماتها الأساسية ومهامها الجديدة التي تضطلع بها والأهداف التي حددتها لتطوير مجتمعاتها، وليس مجرد صدفة أن نسجل في مستهل القرن 19م من ناحية أخرى بداية ذلك الوعي الذي طرأ على الكتابة التاريخية وعلى التاريخ الذي كان حتى ذلك الوقت مجرد فن من الفنون الأدبية ليصبح بعد ذلك علما قائما بذاته يتوفر على منهج خاص به وأدوات بحث تميزه عن فروع المعرفة الأخرى.[50]

يظهر وعي الابراهيمي بالتاريخ من خلال تحليله لعدد من الوقائع والفترات التاريخية فقد قال عن العهد العثماني مثلا: "وتاريخ هذا العهد حافل بالأحداث، ملوّن بألوان الولاة إذ كان منهم الظالم لنفسه وللناس، ومنهم المقتصد، ومنهم الصالح، ولكن صلاح الصالح منهم كان من ذلك النوع التركي الذي يظهر في بناء مسجد حيث تكثر المساجد فلا يكون جامعًا بل مفرّقًا، أو في بناء ميضأة للوضوء أو سبيل للشرب أو إقامة ضريح أو قبّة لولي حقيقي أو وهمي، أو وقف مال على سبيل الخير،وهذا النوع هو أنفع أعمالهم لو دام"[51].

وشخّص الإبراهيمي الحقبة العثمانية في الجزائر تشخيصا عجيبا فقال :"أما تاريخهم السياسي والإداري، فصفحاته الأولى كانت مشرقة بأعمال بابا عروج وخير الدين الحربية وانتصاراتهما فيها، وقد غطّت المحاسن فيها على المساوئ، واعتبرهما الناس منقذين للإسلام وأوطانه- وهو الحق- فلم تبقِ عين الرضى لعين السخط مجالا، وجاء مَن بعدهما فخلطوا

عملا صالحًا وآخر سيّئا، وطال العهد فثقلت الوطأة وساء الجوار، وفشت الرشوة والمصادرات وسفك الدماء ففسدت القلوب والنيّات..."[52].

ويقول الإبراهيمي واصفا الحالة العلمية في العهد العثماني :"..وأما الحالة العلمية في ذلك العهد فهي الصفحة المغسولة من ذلك التاريخ، بل هي الصفحة السوداء في تاريخ الجزائر العلمي، فما رأت الجزائر عهدًا من عهودها أجدب من العهد التركي في العلم، ولا أزهد من حكوماته فيه، ويعلّل كثير من الناس ذلك بأن من خصائص الشعب التركي أنه شعب حرب لا علم، وقد يكون هذا التعليل قريبًا من الحق..."[53].

ويدافع الإبراهيمي بالحجة والمنطق عن مقاومة الأمير عبد القادر، ويرد على الطاعنين في استسلامه بقوله: ولقد قال لي أحد الأصدقاء الأدباء، في هذا الأسبوع، وهو يحاورني في شأن من شؤون الأمير عبد القادر :إنه يعدّ تسليم هذا الأمير ونجاته بنفسه غميزة في قيمته التاريخية بل في دينه، وكان من مقتضيات إمارته وزعامته وبطولته أن يقاتل حتى يموت، وأن لا يختم أعماله بهذه الخاتمة السيّئة التي سن بها لمن بعده سنة التسليم والرضي بالهجرة الاختيارية، ومن معاني هذا الرضى أنه حرص على الحياة.[54]

وكان رد الإبراهيمي أن استسلام الأمير عبد القادر" لم يكن بدعًا من قادة الحرب في التسليم فقد اتبع سنة من قبله، أما أسباب تسليمه فنحن نعرف منها أشياء، ونظن به أشياء، هي الأشبه بحاله ومقامه، أما ما نعرفه فهو اختلال صفوفه، وخذلان كثير من المارقين له– ومنهم بعض مشايخ الزوايا الصوفية وبعض الأمراء من الجيران– خذلانًا تكون نتيجته اللازمة الاضطرار إلى قتالهم، ومعنى هذا أنه بين عدوين، ومضطرٌّ إلى الحرب في ميدانين. وأما ما نظنه به فهو أنه كان ينوي إعادة الحرب مع الفرنسيين، بعد اتصاله بمقرّ الخلافة واجتماعه بأهل الحل والعقد فيه، وهذا ما نفسّر به اختياره اسطمبول دار هجرة ويؤيّد هذا التفسير تلكؤ فرنسا في السماح له بالسفر إليها، كأنما خامرها شيء من هذا المعنى، أو استدلّت بالقرائن عليه."[55]

وينتقد الإبراهيمي شخصية المقراني قائد الثورة الشهيرة ضد الفرنسيين عام 1871 بقوله: "والحاج أحمد المقراني رجل شجاع مؤمن، ولكنه كرجال عصره متوسط الشخصية تنقصه الحنكة والبصيرة، وفت في عضده شيء آخر وهو تخاذل بعض شركائه في تدبير الثورة، وقيام بعض الوجهاء ذوي النفوذ بثورة لا صلة لها بثورته في رأي ولا تدبير ولا قيادة فكانت هذه المنافسة مفسدة لنيّات كثير من الناس، على أن بعض القبائل لم تشارك في الثورة تربّصًا وانتظارًا، وبعضها– وهي قليلة– تعاونت مع فرنسا، فهذه العوامل مجتمعة أدّت إلى فشل ثورة المقراني."[56]

ويقول الابراهيمي أنه لم تقع بعد ثورة المقراني ثورة ذات بال، وإنما وقعت انتفاضات محلية مرتجلة من بعض الرؤساء وقبائلهم المحدودة العدّ، ولم تكلّف فرنسا في القضاء عليها إلا أسابيع أو أشهرًا.

ووجّه الإبراهيمي انتقادا لاذعا للمتصوفين المبتدعة واعتبرهم سبب بلاء البلاد والعباد حيث قال: "واستغلّ الدجّالون من المتصوفة والدراويش، الذين اصطنعتهم فرنسا لغاية التخدير، هذه الحالة النفسية في الشعب، فتعاهدوه بمنوّمات ينسبونها إلى الدين وما هي من الدين، وفحوى تلك المنومات أنّ الرضا بالاستعمار إيمان بالقدر.[57]

وسبق للابراهيمي أن أظهر موقفه من الدجالين من منتحلي التصوف على صفحات سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين سنة 1935.[58]

وقال عن الشيخ امحمد بن رحال الندرومي: "والشيخ الحاج محمد بن رحّال كان زميلا للأمير خالد في النيابة بالمجلس المالي الجزائري، وكان أقرب الناس إلى تأييده، ولكنه كان رجلا بعيد النظر واقعيًا ينظر إلى الأشياء بعين الحكيم لا بعين السياسي، وينظر إلى الجزائريين بعين المسلم فيرى أنهم بلاء على أنفسهم قبل بلاء الاستعمار، وأن الواجب أن يصلحوا أنفسهم بجمع الكلمة والمحافظة على الدين، إلى غير ذلك من أنواع الإصلاح الداخلي الممكن"[59].

خاتمة:

في نهاية هذا المقال نخلص إلى مجموعة من النتائج يمكن تلخيصها على النحو التالي :

- كان الشيخ البشير الإبراهيمي شخصية ذات ثقافة موسوعية ويمكن دراستها من مختلف الجوانب.
- زاد التكوين العلمي للشيخ الإبراهيمي داخل الوطن وخارجه من معارفه في شتى العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- تكونت لدى الشيخ الإبراهيمي نظرا للظروف التي مرت بها بلده ملكة وحس تاريخي لا يقل في شيء عن مؤرخي هذا العصر.
- عدم إتقان الشيخ الإبراهيمي للغات الأجنبية لم يحرمه من الاطلاع على ما كتب عن الجزائر بفضل الترجمات التي كان يلتهمها حفظا ونقدا وتحليلا.
- لم يكن موقف الشيخ الإبراهيمي من أحداث التاريخ موقف الناقل بل المحلل والمناقش والمفسر وهذا نظرا للشخصية التي كان يتمتع بها الشيخ وروح النقد لديه التي امتلكها من مطالعاته الأدبية الواسعة.

الهوامش والإحالات

(1)– عبد الكريم إبراهيم دوحان: دراسات في منهج البحث التاريخي والأدبي، مؤسسة المختار ط1، بيروت: 2009، ص 45.

(2)– بليسنر: "مادة تاريخ" في دائرة المعارف الإسلامية،مج4، دار المعرفة بيروت: دت، ص473.

(3)– أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار الغرب الإسلامي،ط1، بيروت: 1998 ص 302.

(4)– مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر:2007 ص 17.

(5)– أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ط2، دار الكتاب، البليدة: 1963، ص5.

(6)– عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج1، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 1994، ص 16.

(7)– مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، 2007، ص 32.

(8)– أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص 305.

(9)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1997، ص272.

(10)– رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1975 ص 192–193.

(11)– محمد الطاهر فضلاء: الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، قسنطينة، مطبعة البعث 1967، ص116 .

(12)– أبو القاسم سعد الله: الثقافة التاريخية عند الشيخ الإبراهيمي، ضمن كتاب مجادلة الآخر دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط1، 2006، ص163.

(13)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص 115.

(14)– جفري باراكلو: الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984، ص 313.

(15)– Pierre Asouline: Quest ce qu'un historien ? in Vingtiemesiecle revue d'histoire, année 1987, vol15, n°1, p 110.

(16)–Oleg Hievnjuk : L'historien et le document, in les cahiers du monde russe, année 1999, vol 40, n°11, p109.

(17)– أبو القاسم سعد الله: الثقافة التاريخية عند الشيخ الإبراهيمي، ص 115.

(18)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص 110.

(19)– محمود بوعياد: من آثارنا المغمورة بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد، مجلة الأصالة، ع13 مارس– أفريل 1973، ص 213.

(20)– اصدر المدني سنة 1937 كتابا عن الفترة العثمانية بالجزائر عنوانه محمد عثمان باشا.

(21)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص 118.

(22)– أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص 305.

(23)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص 272.

(24)– المصدر نفسه، ص 121.

(25)– صبرينة الواعر: سي امحمد بن رحال عميد الشبان الجزائريين 1858–1928، دار الأيام عمان، الاردن، ط1، 2019، ص 187.

(26)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص 163.

(27)– المصدر نفسه، ص 129.

(28)– المصدر نفسه، ج5، ص 98.

(29)– المصدر نفسه، ج5، ص 101.

(30)– المصدر نفسه، ج5، ص 102.

(31)– المصدر نفسه، ج5، ص 102–105.

(32)– المصدر نفسه، ج5، ص 105–107.

(33)– المصدر نفسه، ج5، ص 107–109.

(34)– المصدر نفسه، ج5، ص 109–111.

(35)– المصدر نفسه، ج5، ص 111–118.

(36)– المصدر نفسه، ج5، ص 118–122.

(37)– المصدر نفسه، ج5، ص 125–137.

(38)– المصدر نفسه، ج5، ص 137– 147.

(39)– المصدر نفسه، ج5، ص 137– 147.

(40)– المصدر نفسه، ج5، ص 108.

(41)– المصدر نفسه، ج5، ص 109.

(42)– المصدر نفسه، ج5، ص 111.

(43)– المصدر نفسه، ج5، ص 116.

(44)– جيلالي صاري: مخطوطات قسنطينة ومصيرها بعد سقوط المدينة في سنة 1837، مجلة الأصالة، ع 80، مارس– أفريل 1984، ص 154–155.

(45)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص 118.

(46)– المصدر نفسه، ج5، ص 120.

(47)– المصدر نفسه، ج5، ص 123.

(48)– المصدر نفسه، ج5، ص 128.

(49)– فاطمة قدورة الشامي: علم التاريخ: تطور مناهج الفكر وكتابة البحث العلمي من أقدم العصور إلى القرن العشرين، دار النهضة العربية، بيروت: 2001 ، ص 175.

(50)– جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر: 1994، ص 311.

(51)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص 117.

(52)– المصدر نفسه والصفحة.

(53)– المصدر نفسه والصفحة.

(54)– المصدر نفسه، ج5، ص 119.

(55)– المصدر نفسه، ج5، ص 119–120.

(56)– المصدر نفسه، ج5، ص 121.

(57)– المصدر نفسه، ج5، ص 123.

(58)– محمد البشير الإبراهيمي: أسباب انتشار الإلحاد بين الشباب، ضمن كتاب سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الإسلامية الجزائرية، قسنطينة، 1937، ص 63.

(59)– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص: 129.